"تسليم نقدي قديم"

استدعاء الموروث الثقافي في النص الشعري عند الشريف المرتضى (٤٣٦هـ)

Cultural Heritage Recalling in Poetry of Al-Shareef Al-Murtadha (٤٣٦ Hegira)

أ.م.د. عبد الهادي عبد الرحمن الشاوي

Asst.Prof.Dr. Abdalhadi Abdal Rahman Alshawi

العراق/ جامعة الكوفة/ المكتبة المركزية

Central Library \ Kufa University\ Iraq

abdulhadi.ali@uokufa.edu.iq

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي

Turnitin - passed research

الملخص:

يتمحور هذا البحث حول موضوعة الثقافة العربية التي تركت تأثيراتها في النص الشعري عند الشريف المرتضى ، وقسّم البحث على :تمهيد ، كان اضاءة لحياة الشاعر وعصره

أما المبحث الأول : فكان ينصب في دراسته على استدعاء أساليب القول الجاهلية ،إذ استطاع أن يقدم نصاً شعرا يفصح عن تلك الأساليب ويؤكد قدرته الفنية على مجاراتها .

أما المبحث الثاني : فقد اختص بدراسة استدعاء الرموز الدينية والتاريخية المختلفة وتوظيفها الدقيق في النص الشعري بما يسهم في تعميق الدلالة ويؤكد عمق الصلة والارتباط بالأرض والإنسان العربي مهما تغيرت ظروف المكان وتباينت الأزمنة واختلفت النفوس ،فان الشاعر الشريف المرتضى استطاع أن يصنع من تلك التباينات نصاً شعريا ناضجاً مكتنزاً بالدلالة غنياً بالإيحاءات. ثم ختم البحث بالنتائج التي توصل لها الباحث .

Abstract

This research focuses on the subject of Arabic culture، left its influence in the poetic text of Sharif Al-Murtada and tends to be divided into : An introduction shedding light on the life of the poet and his age. The first chapter studies the methods of saying in the preislamic poetry ،the second is specialized in recalling various historical symbols and their precise use in the poetic text . Finally ، the research concludes with the findings and results.

مقدمة:

عاش الشريف المرتضى في بيئة ثقافية تركت بصماتها على نتاجه الأدبي ولا سيما الشعري الذي نحن بصدد دراسته والكشف عن هذا التأثير فيه، فقد ظل هذا النص مرآة عاكسة لظروف الحياة التي عاشها الشاعر ولتعلقه النبيل بالموروث الثقافي الذي نشأ في ظله ، فكان خير مصور لذلك الأثر الثقافي في نتاجه، إذ اجتمعت لهذا الشاعر ظروف وعوامل كونت شخصيته وحددت مسارها لم تجتمع لغيره، ومن هنا تأتي أهمية دراسة أثر البيئة الثقافية في شعره ، ولكي يكتمل البحث وينضج وجب أن يسير على وفق خطة بحثية تكونت من الآتي :

أولاً: افرد البحث تمهيداً لإضاءة حياة الشاعر وعصره ،وعوامل تشكّل شخصيته الشعرية والثقافية ، ومن ثم قسم البحث على مبحثين : درس المبحث الأول استدعاءه أساليب القول الجاهلية التي شكلت سمة بارزة تطلبت الوقوف عندها وكشف جوانبها الفنية والثقافية ومن جملة هذه الأساليب : أسلوب مخاطبة الطلل والدعاء بالسقيا ،وأسلوب الاستدارة في خلق الصورة، أما المبحث الثاني : فقد تناولت فيه استدعاءه الرموز والدينية والتاريخية ،وأثرها في تقوية النص الشعري وخلق الترابط مع الماضي بقيمه وعاداته الأصيلة ،ثم ختمت البحث بما توصلت إليه من نتائج.

تمهيد:

إضاءة لحياة الشاعر وعصره

الشريف المرتضى هو الشريف علي بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق عليهم السلام ولد في سنة ٣٥٥هـ ،ووالده كان نقيب الطالبيين وقد تقلد إمارة الحج سنة ٣٥٤هـ[١] ،أما والدته فهي :فاطمة بنت الحسين الناصر الصغير بن أحمد بن الحسن الناصر الكبير الأطروش ثالث ملوك الدولة العلوية بطبرستان وهو ((شيخ الطالبيين وعالمهم وزاهدهم وأديبهم وشاعرهم ، ملك بلاد الديلم والجبل ولقب بالناصر للحق))[٢] ، فهذه منزلته بين قومه ، فهو وريث البيت العلوي الشريف .

أما سماته الشخصية فقد كان الشريف المرتضى ((ربع القامة نحيف الجسم أبيض اللون ،حسن الصورة ، اشتهر بالبذل والسخاء والإغضاء من الحساد ، وقد مني بكثير من هؤلاء ، وديوانه طافح بالشكوى منهم))[٣]، وهذا مسلك المناوئين دائما إذا ما وجدوا ذا حسب وعلم أساءوا إليه ،لكي يعوضوا ما يعانون من نقص في العلم والهمة .

وفي هذه الأسرة ذات النسب الشريف والمجد التليد نشأ الشريف المرتضى في تلك الدار التي ((اعتادت على استقبال رجال الدولة والقواد والفرسان والأدباء والشعراء ،زائرين أو مترددين ،وقد تتلاقى عندها شتى الأجناس من عرب وترك وديلم))[٤] فهي دار ثقافة وعلم بها يزهو الأدب وتتفتح القرائح ويدار الحديث في شتى أمور الثقافة آنذاك ، عاش الشريف المرتضى في ظل هيمنة البويهيين على مقاليد الحكم في بغداد – ((فقد استمر حكم البويهيين على العراق وبلاد فارس من سنة ٣٢٠هـ إلى دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧هـ))[٥] وهي حقبة تاريخية كان الهوان فيها ملازما

لسلطة الدولة العباسية ، فقد ظل الخليفة العباسي في بغداد لا يمتلك من السلطة إلا الشكل فيما كانت مقاليد الحكم الحقيقي بيد السلاطين البويهيين ، وهذه الحالة لها محاسنها ومساوئها، فقد أسهب الدارسون لهذا العصر في الكشف عن تلك السمات التي صبغت الحياة الثقافية ولونتها بألوانها المتعددة [٦]، وأفادتها كثيراً إذ اشتهرت فيها الترجمة ونقلت أمهات الكتب العلمية من اللغات الأخرى الى اللغة العربية ،وحدث تبعاً لذلك تمازج ثقافي في كثير من الأفكار والنظريات ، وكذلك نشأت المكتبات الخاصة والعامة و حدث تنافس كبير بين سلاطين الدويلات الناشئة في ظل الخلافة العباسية الواهنة على ضم أكبر مجموعة من العلماء والأدباء والاعتماد عليهم أحيانا في بعض المهام السياسية ،فقد تولى مثلا الوزارة في مدة الحكم البويهي في العراق عدد من رجالات العلم والأدب ،كان منهم محمد بن الحسين المعروف بابن العميد (ت ٣٦٥هـ) والصاحب بن عباد (ت٣٨٤هـ)[٧]، فضلا عن أن البلاد الإسلامية كانت تعيش شيئا من الحرية في الاعتقاد وفي التسامح ، فقد ((أعطيت الطوائف الإسلامية على اختلافها حرية التعبير عن أفكارها وعواطفها ،كما أتيحت الفرصة لجميع هذه الطوائف والفرق المتفرعة منها عن الإعلان عن نفسها واثبات وجودها بكل ما أوتيت من وسائل التعبير والدفاع الفكري والثقافي والأدبي))[٨] وفي ظل هذه الظروف الاجتماعية والثقافية نشأ الشريف المرتضى وأبدع إنتاجه الفكري والأدبي الذي منه :

١-ديوانه الشعري ،المطبوع
٢-كتاب رسائل المرتضى
٣-طيف الخيال
٤-كتاب الانتصار
٥-غرر الفوائد ودرر القلائد ،وهو المعروف بأمالي الشريف المرتضى
٦-الشهاب في الشيب والشباب وغيرها من الكتب الفقهية والعقائدية،

المبحث الأول :

استدعاء أساليب الشعر الجاهلي

ورث الشعراء العرب في العصر العباسي مجموعة من القيم الفنية التي عبرت الزمان وتجاوزت المكان واستطاعت أن تؤكد حضورها البهي في ساحة النص الشعري العربي مزاحمة من حاول الإقلال من أهميتها وطمس بريقها، وما نجده في شعر الشريف المرتضى يؤكد بوضوح ذلك النزوع إلى الاعتزاز بتلك القيم الفنية التي منها أساليب القول التي اشتهرت في مقدمات القصائد الجاهلية وفي مسحتها الفنية التي أحبها العرب ، وهي الأساليب التي يقول عنها ابن خلدون (٨٠٨هـ) إنها ((ليست من القياس في شيء ،إنما هي هيأة ترسّخت في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب لجريانها على اللسان ،حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر...))[٩] فقد فعل تكرارها في الشعر الجاهلي فعله فاستهوتها الأنفس وقبلتها ووجدت فيها جمالاً فنياً يستحق أن يقلد أو أن يتبع في صياغة النص الشعري لأنه يمتلك القدرة على التأثير في النفس العربية الميالة الى حب تاريخها العربي والمتعلقة بكثير من مفردات حياته الثقافية المتميزة ،ولذلك نهج الشعراء العرب على شاكلتها وسنكتفي بأسلوبين فقط من تلك الأساليب مراعاة لمحددات البحث، وهما :

١-أسلوب مخاطبة الديار والدعاء بالسُقّيا لها:

يجد الشعر الجاهلي بشكلٍ واضحٍ أن أسلوب مخاطبة الديار يحظى بقدر وافر من الحضور في الشعري، فهو يكاد يكون علامة فارقة له، ودالة تكشف عن مفاهيم اجتماعية وتعكس واقعا ثقافيا ظل عالقا في النفس العربية على الرغم من التغيرات المكانية والاجتماعية التي أصابت المجتمع العربي في تطوره الثقافي ونموه، فقد ظل

((قدر غير يسير من آثار المعجم الشعري والتراكيب اللغوية القديمة أدوات تعبيرية يستعين بها الشاعر العباسي ويركز عليها))[١٠] ، وسيكشف البحث عن هذه الصيغ التعبيرية التي منها تحية الطلل،ولذلك وجدنا الشريف المرتضى يؤكد تلك الحالة ويعلن بوضوح عن خطابه الشعري المقلد لأسلافه الجاهليين والمتبع لأساليبهم في فن القول عندما يخاطب الديار(الطلل) حتى إنا لنراه يذكر بعض أسماء تلك الأماكن البدوية التي استحقت التحية لما لها من ذكر طيب في نفس الشاعر ،فهو لا يكتفي بالتحية بل يشفعه بالدعاء بالسقيّا كعادة الشعراء الجاهليين، ومن ذلك قوله و: (الكامل)

حُيِّيتَ يـــارَبْعَ اللـــوَى مـــن مَرْبَـــعِ وسُقيـــتَ أنديَةَ الغُيـــوثِ الهُمَّـــعِ
فلقـــد عهدتُكَ والزَّمـــانُ مُســـالِمٌ فيـــكَ المُنـــى وشفـــاءُ داءِ المَوجَـــعِ
أيّـــامَ إنْ يـــدعُ الهـــوَى بي أتَّبِـــعْ وإذا دُعيتُ إلى النُّهـــَى لم أَتبـــعِ[١١]

ويخاطب الطلل في نص آخر، ذلك الذي أسهر عينيه وأرقه؛ لأنه مكمن الذكريات ، وفيه أحس الشاعر بالحرمان حين انقطع الوصل، وضاعت الأماني مستعملا أسلوب النداء الذي يضفي على المخاطب سمات انسانية، وإن كان جماداً باليا، وهي عادة الشعراء الجاهليين عندما يمنحون الدار صفات إنسانية في عملية تشخيص يراد بها إظهار قرب الصلة بين الدار وساكنيها، إذ ليس ((هنالك من شك في أن مخاطبة الطلل تكشف عن وعي الشاعر العميق بالمكان وإحساسه به، وقد تكررت هذه الظاهرة في الشعر الجاهلي حتى شكّلت ملمحاً أسلوبياً ،وذلك من خلال اقتران الطلل بالنداء الذي يكون للعنصر الإنساني في العادة))[١٢] فقد منح الشاعر سمات شخصية للطل وخاطبه مخاطبة العاقل، وفي ذلك يقول : (من السريع)

يـــا طَلَلَ الحـــيِّ بـــذاتِ النَّقـــا مـــن أسهر العينـــين أو أرّقـــا ؟
قـــد آنَ والحرمـــانُ من وصـــلكمْ حظّـــي أن أعطـــى وأنْ أرزقـــا
كـــم قـد رأتْ عينـــيَ في حبّكـــمْ وجـــهاً مُضيـــئاً نـــورُه مُشرقـــا [١٣]

وفي شعر الشريف المرتضى شواهد تحكي هذا الأسلوب الجاهلي الذي اعتمده في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه في أغلب أغراض شعره.[١٤]

٢-أسلوب الاستدارة:

هو واحد من الأساليب الشعرية التي اعتمدها الشعراء الجاهليون في نقل الدلالة وفي تصوير انفعالاتهم وتجسيد مشاعرهم وتجاربهم الخاصة كاشفين عن قدرة فنية في استعمال عدد من الأساليب الفنية لنقل الدلالة بصورة أكثر جمالاً وتشويقاً للمتلقي، ويقوم أسلوب الاستدارة على كشف وصف و تشبيه حسن، وقد جاء هذا الأسلوب في كتب النقد الأدبي القديم بتسميتين هما الأولى: التفريع وعنه ،يقول يحيى بن حمزة العلوي (٧٤٩هـ) ((هو أن يصدر الكلام بحرف نفي وهو»ما» وتجعله أصلاً لما تريد ذكره من بعده ،ثم يأتي بعد ذلك بأفعل التفضيل))[١٥] أما التسمية الثانية أسلوب النفي والجحود[١٦]، أما في الدراسات الحديثة فيطلق عليه أسلوب الاستدارة ، أو تشبيه الاستدارة، أو يسمى بالاثنين: التفريع أو الصورة الاستدارية وهي تقوم ((على المشابهة والمقارنة بين شيئين وإن كانت على سبيل المناقضة أو المخالفة، أو قل القلب بهدف تكريس فكرة التفوق والتمايز في المشبه على المشبه به خلافاً للمألوف في سبيل التشبيه، مما جعلها أقرب ما تكون إلى التشبيه المقلوب، وأدنى إلى مقاصده ومراميه الفكرية والجمالية على السواء، و إن اختلفا في الأسلوب بطبيعة الحال))[١٧] ويقوم هذا الأسلوب على وفق منهج بنائي متميز يعتمد((«ما» النافية العاملة عمل « ليس» مشفوعة بالمشبه به الذي هو الخبر، والذي يأتي على صورة (أفعل) التفضيل

المتصلة بالباء الزائدة الواقعة في خبر (ما) وعلى طول المسافة ما بين المشبه والمشبه به يسوق الشاعر مجموعة من الأبيات ،تكثر أحياناً وتقل أحياناً أخرى لتجسد فكرة محددة هي الغاية المقصودة من المشابهة في تشبيه الاستدارة))[١٨] وكل ذلك نتاج لحالة الشاعر النفسية وانفعالاته في اظهار الصورة بالشكل الذي يقربها ويمنحها بعدها التأثري والتأثيري في المتلقي بعدت أن ولدت من مخاض التجربة بكل ما يرافقها من ملابسات الواقع وقوة الخيال المبدع ، وهذا الأسلوب يبدو جليا في قول الشاعر الأعشى: (من البسيط)

ما رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الحَزْنِ مُعشِبَةٌ خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيهَا مُسْبِلٌ هَطِلُ
يضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شرقٌ مُؤزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ
يَوْماً بِأَطْيَبَ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَةً ولا بأحسنَ منها إذْ دنا الأصلُ[١٩]

وهذا الأسلوب فيه من السلاسة والانسياب والمرونة، ومن التأليف الدقيق بين الصور الجزئية المتحركة الموحية بالحياة حيث الأرض الخضراء والشمس المشرقة، والرائحة الزكية والغيث المنهمر بما فيه من دلالة النماء والانبعاث والتجدد كلها خلقت لوحة فنية رائعة الجمال تركت تأثيرها المستمر في متلقيها، وهذا ما جعل ابن حجة الحموي يقول عنه ((وجدت هذا النوع الذي نحن بصدده أحلى في الأذواق وأوقع في القلوب))[٢٠] فالحلاوة توفرها الصور المتناسقة المؤتلفة، فضلا عن ذلك؛ فانه لا يمكن اخفاء السمة الجمالية لهذا الأسلوب الذي يقوم بحشد مجموعة من الصور المتعاضدة في مسار حركي يختاره الشاعر، ولا يتم لها إتمام القصد المراد إلا بعد مجيء المشبه بعد طول انتظار وترقب يعمل ذلك على جلب الانتباه وتقوية صلة التواصل بين المبدع والمتلقي، وهو بذلك ((ينطوي على مظاهر جمالية أوسع وأبرع مما يقوم عليها في التشبيه المقلوب لحرص الشعراء على حشد كل ما أمكنهم من مقومات الجمال ومظاهر البهاء وعناصر الفن في المشبه به لا ليكون الأكمل والأجل،

ولكن ليدنو من مستوى المشبه دون أن يبلغ مكانته ،من خلال فكرة النفي التفضيلي اللاحق))[٢١] وهذا ما لا يحصل أبدا بين المشبه والمشبه به حسب ما أرى، إذا لا بد من وجود أفضلية أو تمايز، وإن هذا الأسلوب في شعر الشريف المرتضى يبدو جلياً عندما يصف طيب المرأة المتغزل بها، فهو يمهد لذلك بمجموعة من الصور الحسية المختارة بما يعزز اتجاه الدلالة المقصودة، وبما يضفي جمالاً مختاراً لبيئة يعشقها الشاعر ويعيشها في وجدانه غير منفصلة عنه ولا ملتبسة في فكره وميوله النفسية ليتحقق انسجامُ مع واقعه الثقافي الذي يشاركه فيه كثير ممن حوله، وفي هذا العرض المنسجم للصور الفنية سمات جمالية تثير إحساسا كامنا في نفوس متلقيه، وأسلوبه ولوحته الفنية تكشف ذلك، عندما يقول: (من الطويل)

ومـــــا روضـةٌ بـــاتَ الخُزامى يحفّها ونـــوْرُ الأقـــاحي وسْطَهـــا يتفسّحُ
كـــــأنّ بمغناها تُفَـــــضُّ لَطيمـــةٌ مُجَعْجِعَةٌ أو مَنْـــــدَلُ الهنـــد ينفـحُ
بأطيبَ مِنْ أردانهـــــا حينَ أقبـــــلتْ وغصنُ النـــقَا في دِرْعـــها يترنَّحُ[٢٢]

وفي هذه اللوحة الفنية استطاع الشريف المرتضى أن يجمع الصور على اختلافها ويوحدها في أنموذج فني تمازجت فيه الصور البصرية المتمثلة في صورة نبات (الخزامى) وهو نبات بري زهري جميل المنظر ينتشر في الصحراء العربية ويعشقه العربي ويهوى منظره، يشاركه في تلك الصورة الزهرية نبات أخر هو (الأقاحي) وهو أيضاً من أزاهير الصحراء العربية، ثم أنه عضد الصورة البصرية بصور شمية تجد حضورا وتقبلاً عند المتلقي العربي إذ تنبعث الروائح العطرية من منادل هندية، وهذه كلها لا تصل في تأثيرها على الشاعر الى ذلك المستوى الذي يظهر طيبها فهي أطيب وأجمل وأرق.

ويتبع الشريف المرتضى الأسلوب نفسه عندما يريد أن يصور حزنه وشجنه، فهو

يصور نوح (القمري) السرمدي الراسخ في العقل في دلالة الحزن لا غيرها والبالغ منزلة الرمز في التأثير عند الشاعر أو عند متلقيه ممن يشاركونه في واقع ثقافي محدد المعالم بارز الملامح هو واقع الثقافة البدوية ودليلنا على ذلك النص الذي استشهدنا به نص مثقل بالصور البدوية المتمثلة في نباتات الصحراء البرية كـ(الخزامى والأقاحي) وهذا التوظيف للصور الراسخة في مخيلة المتلقي تعمق فعل التأثير في نفسه حتى تمادى الشاعر في خياله فجعل نوح القمري في منزلة أدنى من نوحه ويجعله من شجنه، فالشاعر هنا يستدعي صوراً من نمط آخر يعضد صورته الكبرى، فنراه يضيف صوراً سمعية من واقعه العربي لها صدى في نفوس متلقيه، فضلاً عن صورته البصرية التي تتحقق بجلاء مدمع ساجٍ وقلب مجروح على فقد الأحبة وضياع الألفة التي كانت تغمر حياته، وذلك ما نجده في قوله: (من الطويل)

ومـــا نوحُ قُمْرِيٍّ على فرعِ أيكـــــة ... يَمُـنُّ له ذكـرُ الفـــراقِ فيصـــــدحُ

لـــه مدمعُ «الشاكي» جفوناً وقلبـــهُ ... بما جـرّه فقـــدُ الأليـــفِ مُقَـــرّحُ

بأشجى شجىً مني غداةَ ذكرتُـــكمُ ... ووادي مِنًى بالعيسِ والقومِ يطفحُ(٢٣)

لقد حشد الشاعر في تصوير حالته وعرض مشاعره مجموعة من الصور المتلونة المختلفة، ليؤكد أنها أهون من حالته، وأقل فعلاً في النفس من فعل وداع عاشه وفراق ألم به وعاناه.

وهذه نماذج تكشف عن تعلق الشاعر بأسلوب قولي صوّر به الشعراء الجاهليون أحاسيسهم ونقلوا أوصافا دقيقة لما حولهم من بيئة عاشوها فأثرت في نتاجهم الشعري.

المبحث الثاني:

استدعاء الرموز الدينية والتاريخية

تكثر استدعاءات الشريف المرتضى للرموز التاريخية في شعره ومرد ذلك حسب اعتقادنا علمه الغزير بأنساب العرب واطلاعه على الموروث الثقافي وحبّه الشديد لأمته وتاريخها المجيد ،فقد كان الشريف المرتضى((ذكياً وطموحاً مثابراً محباً للعلم، مؤثراً لمجالسة العلماء منذ حداثة سنه))[٢٤] وكان يمتلك ثروة لغوية وثقافية كبيرة، وهو ذو طباع خلقية كريمة، فقد ((كان ثابت الجأش ، ينطق بلسان المعرفة ،ويردد الكلمة المسددة فتمرق مروق السهم من الرمية))[٢٥] وكل هذه السمات انعكست في نتاجه الشعري، فهو موسوعة ثقافية ضمت كثيرا من الآثار الثقافية التي تمثّلت على شكل رموز تاريخية انسانية ومكانية، إذ استطاع بمهارته العالية ان يستدعي كثيرا منها، وسوف نقتصر على نوعين من هذه الرموز هما:

١-الرموز الدينية :

إن الرموز الدينية التي حق للشريف المرتضى أن يفخر بها وأن يضمنها شعره كانت أعلى الرموز أبداً وأكثرها حضورا في نصوصه الشعرية لكونه من أسرة دينية، فهو سليل الدوحة المحمدية المباركة؛ لذلك نراه يكثر من توظيف هذه الرموز الدينية لغايات النص الشعري المعرفية والعقدية أحيانا، وربما وظّفها لأغراض سياسية تبعا لسياق الموقف الذي أُنتج في رحمه النص الشعري، ومن ذلك ما نجده في شعره وهو يفتخر بنسبه الشريف الذي هو فرعه قائلاً : (من المنسرح)

إنـــي مـــن معـشرٍ إذا نُـسبوا ... طـابوا فُروعـاً وأنجبـوا حَسَبا

لا يجـد الـذّمّ فـي حريـمهُم ... مَسْعًى ولا العائبون مُضطَرَبا[٢٦]

ولقد طاب المعشر حقاً وأنجب خيرة الناس علماً وأدباً وحسباً، ونراه في قصيدة أخرى قد خصّ بها الخليفة العباسي القادر العباسي[٢٧] يعود الى ذلك الإرث الثر من المعاني والقيم التي تنثال عندما يذكر النبي الأكرم ﷺ فهو المادح بهذه القيمة التي تمنح النص دلالات لا يمكن لغيرها أن تمنحه ، فيقول: (من الكامل)

فخـراً بني عمّ الرّسول فأنتمُ ... أزكى المغارِس في الأنام وأطيبُ
إرثُ النبيِّ لكُمْ ودارُ مُقامِهِ ... والوحْيُ يُتلى بينكُم أو يُكْتبُ
والبُرْدُ فيكم والقضيب وأنتم الـ ... ـأَدنَوْن من أغصانه والأقربُ
وأبوكمُ سقّى الأنامَ بسَجْلِهِ ... وأحلَّه والعامُ عامٌ مُجدبُ[٢٨]

فالشاعر يشير إلى النسب الشريف ويدل على الكرامة التي كانت لأهل هذا البيت والمنزلة وهي (الرفادة) التي كانت للعباس بن عبد المطلب (رض) إذ يسقي الحجيج بدلوه، ولا سيما في الأيام المجدبة، فضلاً عن الإرث العظيم الذي تركه الرسول الأكرم ﷺ ، ومعدداً بعض جوانب هذا الإرث وهي: داره التي أقام بها فهي مهوى القلوب على مر العصور، وقد استطاع الشاعر أن يستدعي المكان في لحظة زمنية بعيدة عنه فعمد الى ترهينها في لحظة زمنية واحدة، لأن المكان ماثل في مخيلة الشاعر خالد في ذاكرته، فجاءت هذه الصورة للمكان التاريخي لتؤكد ((دلالة نفسية تأخذ أبعادها وما يحيطها من شحنات عاطفية دافقة ترسم من خلالها الأشكال الإنسانية التي أراد الشاعر أن يعبر عنها))[٢٩] فذكر بعضها وأخفى أخرى لتحريض المتلقي على استدعاء الصور الباقية ، ومن ثم الوحي الذي لا ينزل على سواه ﷺ أبدا، والبردة التي أصبحت أيقونة التراث المحمدي .

ومثلما شغلت الرموز الإسلامية حيزاً كبيراً في شعره، فإن الأماكن التي تحمل دلالات اسلامية كامنة في عقله ونفسه قادرة على أن تثير الحنين الى تلك الربوع

وتأججه زفرات نستشفها فيما نجده في استدعائه للمكان ذي الدلالة الدينية، إذ نلمسه في نصه الآتي حين يذكر رموزاً تحمل دلالات دينية تكشفها لنا الألفاظ الدالة على تلك الرموز والأمكنة، فان لفظة (الحطيم وزمزم) تمنح النص دلالة دينية، وتشير إلى فرع ديني (فريضة الحج) يؤديها المسلمون ويقيمون شعائرها وهم في شوق دائم إليها، وهذا الاستدعاء من مناخات نفسية تغلف النص وتحتويه ،بل تعلي من شأنه وتحببه الى القلوب ،اذ يقول: من الطويل

حلفـــــتُ بمـا لفَّ الحَطيـمُ وزَمْزَمٌ ومـــــا ضمّهُ خيفا منـــــًى والمعرّفُ

وشـعثٍ أتوا عارين من كلّ « لبسة » فعــاذوا بأركان الإلـــهِ وطوَّفوا[٣٠]

وهذان **البيتان** مكتنزان بالرموز المكانية والمعاني التي علقت في ذهن المتلقي وأحبها تجسدها مجموعة من الألفاظ مثل (منى والمعرف) فضلا عن الألفاظ الدالة على الشعائر الدينية، فالنص حامل دلالات تؤكد عمق الصلة والترابط الروحي بين الشاعر وتراثه متمثلاً برموزه الدينية ويكثر هذا الاستدعاء للرموز الدينية الانسانية أو الاماكن.

٢-الرموز الأدبية:

لقد حفل التاريخ العربي والإسلامي بكثير من الرموز التي ما فارقت النص الشعري العربي في جميع أعصره لما لها من مكانة تاريخية تعكس ثقافة المجتمع وتدل على رسوخ تقاليد هذه الثقافة وتمكنها من النفس العربية، ولم تنتقل هذه الثقافة الا عبر مجموعة من الرموز التي ظلت خالدة لما قدمت من خدمة ثقافية او سياسية او اجتماعية لا يستطيع العربي نسيان فضلها ،فللشعراء من هذه الرموز حظ وافر

لأنَّ جل ثقافة العربي كان ينهض بها الشعر والعرب يستعذبون هذا الفن ويقدرونه ،فإذا ما أبدع شاعر ما في عصر معين نراه يظل ينتقل حيا بين الشعراء من خلال التوظيف لبعض شعره أو لاسمه .وهنا نرى كيف وظف الشريف المرتضى الشاعر الرمز (جرول) الحطيئة في شعره عندما قال:(**من الكامل**)

صبحٌ وفي أبصارِ قوم ظلمةٌ أرى وفى حنكِ العدوِّ الحنظلُ
لو عاش نافسني به « مزنيّهمْ » أوْ لا فيحسدني عليه « جرولُ »[٣١]

ومن الرموز الأدبية الأُخر التي وظفها الشريف المرتضى في شعره شخصية عمرو بن معد يكرب الزبيدي (ت٢١هـ) وهو الشاعر الفارس المعروف، وشخصية أخرى هي شخصية ملك اليمن العربي ذائع الصيت سيف بن ذي يزن، فالشاعر الشريف المرتضى يستدل بهم على همة ممدوحه، وعلو شأنه بين الناس، وشدة بأسه، فهو القائل: (من البسيط)

يا صاحبيَّ على ما الدَّهرُ مُحدثُهُ من مركبٍ لَيِّنٍ أَوْ مركبٍ خَشِنِ
قولا لملكِ الملوك الأرض كلّهمُ والرُّكنِ للدّينِ والماضي على السُّنَنِ:
قد نلتَ ما لم ينلْ كسرى ولا بلغتْ همّاتُ عمروٍ ولا سيفِ بن ذي يزنِ
ما إنْ يكونُ لأخلاقٍ خُصصتَ بها كريمةٍ في الورى شبهٌ ولم يكنِ[٣٢]

فالشاعر هنا قد قدّم نصا استمده من نص الشاعر العباسي أبي تمام (ت٢٣١هـ) القائل

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس[٣٣]

فالنص يكشف عن رموز عربية تاريخية يعرفها ويعيها المتلقي وهي خالدة في موروثه الثقافي، فضلا عن أن الشاعر قد ألمح الى شخصية أدبية أخرى وهي شخصية الشاعر أبي تمام من دون أن يصرح بها إنما اعتمد على ذاكرة المتلقي المكتنزة بالموروث الثقافي

في شقيه الأدبي والتاريخي فحقّق بذلك بعداً معرفياً آخر للنص.

ويظل الشاعر الشريف المرتضى دائما يستدعي الرموز التاريخية الفاعلة في المجتمع والتي من خلالها يريد استنهاض همم أبناء الأمة الإسلامية وتوعيتهم بماضيهم التليد وإيقاظ روح المبادرة والحب الى ذلك المجد المؤثل، ولا يسعنا إلا أن نكتفي بهذه النماذج موطّدين العزم على التفصيل في بحث موسع لهذه الظاهرة في شعره فهي تستحق العناء والدراسة لمالها من أهمية ثقافية وروحية نأمل من الباري ان يمكننا من ذلك.

الخاتمة:

لقد استند البحث الى فرضية إيجاد التأثير الثقافي في النص الشعري عند الشريف المرتضى ، بدراسة تقوم على النظر في النص الشعري وكشف بناه وتحليل الصيغ التي يستشف منها هذا الاستدعاء للموروث الثقافي في عصر يعد من أزهى العصور الإسلامية وعند شاعر وعالم بفنون القول ، وهذا يمنح النص بعداً فنياً قادراً على جذب المتلقي وعلى الرسوخ في مخيلته بعد ما استهواه الفن الشعري الذي ربطه ما مضى من تراث ثقافي تمثل في :

١-اهتم المبحث الأول بالكشف عن أساليب القول العربية الجاهلية التي استدعاها الشاعر في نصه الشعري، فأعاد ألق الشعر الأصيل الى ما أبدع من نصوص فنية. ومن هذه الأساليب القولية ما اعتاد الشعراء الجاهليون عليه من مخاطبة الدار أو الطلل مخاطبة الإنسان العارف بحاله القادر على رد الجواب ، فوظف الشاعر الشريف المرتضى هذا الأسلوب وأكثر من استعماله للتعبير عن حالة الشوق الى الأرض والتراث، كذلك سلك مسلكهم في الدعاء للديار بالسقيا على عادة من سبقه من الشعراء الجاهليين، ومن تبعهم من الشعراء.

٢-ومن الأساليب الأخرى أسلوب الاستدارة، فقد صاغ الشاعر بعضاً من صوره الشعرية على وفق هذا الأسلوب الذي جاء به الشعراء الجاهليون، وقد سايرهم الشاعر في منحاهم، وكان مجيداً في خلق الصورة الشعرية على هذا الأسلوب.

٣-وظّف الشاعر بدقة فنية بعض الرموز الدينية والتاريخية لما لها من حضور مؤثر في النفس العربية ولانها تحمل دلالات متنوعة، وان اختلف الزمان وابتعد المكان فان لهذه الرموز الدينية قداسة في النفس ،وللرموز التاريخية أيضا فعلها المؤثر فلم يغفل عن ذلك.

هوامش البحث

١- ينظر :المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ،لابن الجوزي ،مطبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ١٣٥٨هـ :٧/ ٢٣

٢- شرح نهج البلاغة ، لأبي حامد عز الدين بن هبة الله بن محمد بن محمد بن أبي الحديد المدائني المتوفي سنة ٦٥٥هـ - ضبطه وصححه - محمد عبد الكريم النمري _ دار الكتب العلمية _ بيروت _ ط٣ _ لبنان _ ٢٠٠٣م: ١/ ٣٢

٣- الانتصار، الشريف المرتضى ، تحقيق، مؤسسة النشر الإسلامي ، قم المقدسة ،١٤١٥م : ١٣

٤- ديوان الشريف الرضي ،شرحه الدكتور محمود مصطفى حلاوي ،شركة دار الأرقم بن الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت ، ط١ ،١٩٩٩م :٢٤

٥-الشريف المرتضى،حياته ،ثقافته ، أدبه ونقده ،د. أحمد محمد المعتوق ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١ ،٢٠٠٨م :١٨

٦- ينظر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، أدم متز، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٥: ١/ ١٩

٧-ينظر :تاريخ الخلفاء ،جلال الدين السيوطي ،تحقيق ،لجنة من الأدباء ،دار الثقافة ، بيروت ،١٩٧٠م :٣٢١-٣٦٥ .ومروج الذهب ومعادن الجوهر ،للمسعودي ،تحقيق ،محمد محيي الدين عبد الحميد ،مطبعة السعادة ، القاهرة ،١٩٦٥م :٣/ ٣٧٩-٣٨٩

٨- الشريف المرتضى ،حياته ،ثقافته ،أدبة ونقده: ١٩

٩- مقدمة ابن خلدون :٧٨٨

١٠-في الأدب العباسي ، الرؤية والفن، د.عز الدين إسماعيل، دار النهضة العربية بيروت، ١٩٧٥م :٤١٢

١١- ديوان الشريف المرتضي ، شرح : محمد التونجي ، دار الجبل ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م: ٢/ ٢٧٤

١٢-تشكيل الخطاب الشعري ، دراسات في الشعر الجاهلي د. موسى ربابعه ،دار جرير ، الأردن ،ط٢ ،٢٠٠٦م :١٣

١٣-ديوان الشريف المرتضى : ٢/ ٣٧١

١٤-ينظر المصدر نفسه : ٢/ ١٧ ، ٢/ ١٤١، ٣/ ٣٣٦

١٥-الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ٣/ ١١٣

١٦-ينظر : أنوار الربيع في أسرار البديع : ٦ / ١١٢ وينظر : الصورة الفنية معياراً نقدياً ،د. عبد

الاله الصايغ :٢٨٣

١٧-الصورة الاستدارية في الشعر العربي ، د .خليل إبراهيم أبو ذياب ،دار عمار للنشر والتوزيع ،الأردن ، ١٩٩٩م :٣٤

١٨-من جماليات تشبيه الاستدارة في الشعر الأموي، دراسة في المجال والمصدر(مجال الغزل بالمرأة نموذجاً) ،إسماعيل العلم ، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية ،جامعة اليرموك ، الأردن ، مجلد ٢٩ ،العدد ٢ ،٢٠٠٢م : ٥٣٧

١٩-ديوان الأعشى (ميمون بن قيس) تحقيق ، د.محمد محمد حسين ،مكتبة الآداب ،المطبعة النموذجية ، مصر ،١٩٥٠م :٥٧

٢٠-خزانة الأدب وغاية الأرب ، ابن حجة الحموي :٢/ ٥٠٦

٢١-الصورة الاستدارية في الشعر العربي : ٣٨

٢٢-ديوان الشريف المرتضى : ١/ ٢٧٣

٢٣-المصدر نفسه : ١/ ٢٧٤

٢٤-شرح نهج البلاغة ،لابن أبي الحديد :١/ ٤١

٢٥-لسان الميزان ،ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند ،ط ٢، ١٩٣٠م : ٢٢٤

٢٦-ديوان الشريف المرتضى ١/ ٣٨ .

٢٧-الخليفة القادر العباسي تولى الخلافة سنة ٣٨١ هـ بعد أن خلع الطائع : ديوان الشريف الرضي ، هامش : ١/ ١٠٣ .

٢٨-ديوان الشريف الرضي : ١/ ١٠٣ .

٢٩-الشعر والتاريخ ، نوري حمودي القيسي ، جامعة بغداد ، ١٩٨٠م: ٣٤

٣٠-المصدر نفسه : ٢/ ٣٢

٣١-ديوان الشريف المرتضى : ٢/ ٤٢ ، جرول :هو الحطيئة جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو ملكية. شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. كان هجاءً عنيفاً، ينظر: الاغاني : ١/ ١٦١

٣٢-المصدر نفسه : ٣/ ١٣٥

٣٣-ديوان أبي نمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق ،محمد عبده عزام ، دار المعارف ، مصر ، ط ٤ : ٢/ ٢٤٩

قائمة المصادر والمراجع:

*الانتصار، الشريف المرتضى، تحقيق، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة، ١٤١٥هـ

*أنوار الربيع في أنواع البديع ،السيد علي بن صدر الدين بن معصوم المدني، تحقيق، هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٦٩م

*تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، تحقيق، لجنة من الأدباء، دار الثقافة، بيروت ،١٩٧٠م

* تاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية، عمر فروخ ،دار العلم للملايين، بيروت، ط١ ،١٩٦٨م

*تشكيل الخطاب الشعري، دراسات في الشعر الجاهلي د. موسى ربابعه، دار جرير ،الأردن ،ط٢ ،٢٠٠٦م

*الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، تأليف الأستاذ أدم متز، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٥

*خزانة الأدب وغاية الأرب، لأبي بكر بن علي بن عبد الله المعروف بابن حجة الحموي(٨٣٧هـ) دراسة وتحقيق، د.كوكب دياب، دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م

*ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق ،محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر ،ط٤

*ديوان الشريف الرضي، شرحه الدكتور محمود مصطفى حلاوي، شركة دار الأرقم بن الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ،ط١ ،١٩٩٩م

*ديوان الشريف المرتضي، شرح : محمد التونجي، دار الجبل، بيروت، ط١ ،١٩٩٧م-

*ديوان الأعشى (ميمون بن قيس) تحقيق، د.محمد محمد حسين، مكتبة الآداب ،المطبعة النموذجية، مصر، ١٩٥٠م

*شرح نهج البلاغة، لأبي حامد عز الدين بن هبة الله بن محمد بن محمد بن أبي الحديد المدائني المتوفي سنة ٦٥٥هـ، ضبطه وصححه، محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٣، لبنان، ٢٠٠٣م

*الشريف المرتضى، حياته ،ثقافته ، أدبه ونقده ، د. أحمد محمد المعتوق ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١ ،٢٠٠٨م

* الشعر والتاريخ ، د. نوري حمودي القيسي ، جامعة بغداد ، ١٩٨٠م

*الصورة الاستدارية في الشعر العربي ، د .خليل إبراهيم أبو ذياب ،دار عمار للنشر والتوزيع ،الأردن ، ١٩٩٩م

* في الأدب العباسي ، الرؤية والفن، د.عز الدين إسماعيل، دار النهضة العربية بيروت، ١٩٧٥م

*لسان الميزان ، ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند ،ط ٢، ١٩٣٠م

*المتنبي والتجربة الجمالية (تلقي القدماء لشعره) د. حسين الواد ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤م

* مدخل إلى القيم الإسلامية، د. جابر قميحة ، دار الكتب الإسلامية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٤م

*مروج الذهب –معادن الجوهر ، للمسعودي ، تحقيق ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٦٥م

* مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن حمد بن خلدون (٨٠٨هـ)، دار الفكر–بيروت

*المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، لابن الجوزي ،مطبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ١٣٥٨هـ